بحوث في اللغة العربية : نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات الأجنبية بجامعة إصفهان
العدد ١٤ (ربيع وصيف ١٤٣٧هـ.ق/ ١٣٩٥ هـ. ش)، ص ٥٩ ـ ٧٤

دراسة آراء عبد القاهر الجرجاني مقارنة مع بعض اللسانيين المحدثين[١]

محمدهادي مرادي ❖
فاطمة كاظمي ❖❖

الملخص

يعدّ عبد القاهر الجرجاني من أبرز المجددين في مناهج الدراسة اللغوية والأدبية وقد استقل عن معاصريه في متابعة نظرية النظم التي أصبح بمرور الزمن رائدها الأول بلا منازع، فالجرجاني اهتدى إلى البنيوية بمفهومها المعاصر قبل أن يهتدي إليها أي عالم ونظرية النظم عنده تشهد له بعبقرية لغوية منقطعة النظير. تصبو هذه الدراسة في جزء يسير مما يمكن درسه إلى إلقاء الضوء على آراء الجرجاني مقارنة مع الآراء اللسانية الأخرى خاصة آراء سوسير وتشومسكي. يقوم منهج البحث على المنهج الوصفي الذي يحاول إبراز وجوه التشابه بين عبد القاهر الجرجاني وبين سوسير وتشومسكي، بحيث يبين أن آراء عبد القاهر تقترب من المحدثين بل تكاد تتفق معهم في نواح كثيرة من دراسته. كما نظرته إلى اللغة بأنّها بناء ونظام ونسق من العلامات وتأكيده على اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول وإيمانه بأن المفردة تكسب قيمتها الدلالية والجمالية داخل السياق كلها تدخل في صلب نظرية البنيوية.

الكلمات المفتاحية: عبد القاهر الجرجاني، سوسير، تشومسكي، نظرية النظم، البنيوية.

١ـ المقدمة

إنّ عبد القاهر الجرجاني قد وضع أسس المنهج البنيوي منذ ما يزيد تسعة قرون مضت، قبل أن يظهر البنيويون في أمريكا وأروبا ليضعوا منهج دراسة اللغة وحقيقتها والكلام وأصول أدائها ويفرقوا بين الدال والمدلول والمشار إليه ويكشفوا العلاقات القائمة بين مؤلفات التركيب وينظروا إلى العلاقة بين الدال والمدلول على أنها إعتباطية إلى غير ذلك من المفاهيم التي لو تحريناها في ما وضع

١ـ تاريخ التسلم: ١٣٩٥/٣/٩هـ. ش ؛ تاريخ القبول: ١٣٩٥/٦/٣هـ. ش.
❖ أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي. Email: hadim29@gmail.com
❖❖ طالبة الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي (الكاتبة المسؤولة). Email: fatemehkazemi43@yahoo.com

Archive of SID
www.SID.ir

الجرجاني من دراسة في *دلائله* رأيناها جلية في «نظرية النظم» التي وضع مبادئها وبنى أسسها بشكل دقيق وواضح ودافع عنها بصدق (العبيدي، ١٣٦٨، ص ٦).

هناك تشابه كبير ونقاط تلاق بين دراسة عبد القاهر، وبين ما وصلت إليه الدراسات الحديثة والمعاصرة في المناهج الغربية بشهادة معظم الدارسين والباحثين ودراسته للنظم وما يتصل به تقف بكبرياء معادلا قويا لأحدث النظريات اللغوية في العالم الغربي وقد تفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي هذا مع الفارق الزمني الواسع الذي كان ينبغي أن يكون ميزة للجهود المحدثة على جهد عبد القاهر (حسان، ١٩٩٤م، ص ١٩ ـ ١٨)، ولعل أحدث ما وصلت إليه الجهود العلمية في العصر الحديث في حقل الدراسات هو المنهج البنيوي مع ظهور العالم السوسيري الذي يعدّ المكتشف الأول لأسس البنيوية في البحث اللغوي الذي خلص إلى اعتبار البنية أساسا قاعدا للمنهج وقد تواصل البحث بهذا المفهوم حتى وصل إلى العالم جاكبسون[١] إلى أن انتهى إلى تشومسكي الذي اشتهر بالبنيوية (انظر: عباس، ١٩٩٩م، ص ١٥)؛ فعبد القاهر الجرجاني في كتابه *دلائل الإعجاز* اهتم بالألفاظ المفردة من ناحية، ثم الألفاظ بعد اندماجها في التركيب والتأليف من ناحية أخرى، ولعل هذه الدراسة هي صلب الموضوع في الدراسات البنيوية الحديثة؛ فالنظم في نظر الجرجاني تعليق الكلم بعضها ببعض والبلاغة لا ترجع إلى فصاحة اللفظ وبلاغته وإنما إلى النظم ومنهج الصياغة ومعنى ذلك هو أن الكلمة لا قيمة لها في ذاتها بل في علاقتها في تركيب لغوي ما، وهو بذلك لا يحكم على اللفظة مستقلة بل يدرس اللفظ حين الدخول في سياق لغوي ما، وهذا السياق هو الذي يحدث تناسق الدلالة ويبرز فيه المعنى على وجه يتقبله العقل ويرتضيه.

إن الألفاظ عند الجرجاني لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمات مفردة، وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة للمعنى الذي يليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يؤكد ذلك أنك تعجب بكلمة في سياق معين وقد لا تعجبك هذه الكلمة نفسها في سياق آخر (*البنيوية من منظور الجرجاني*، وانظر: جرجاني، ١٣٧٥، ص ٤٤، ٤٥).

١ـ ١ـ خلفية البحث

لم تكن دراستنا هذه أول دراسة تناولت آراء عبد القاهر الجرجاني بل هناك دراسات أخرى حول آراء عبد القاهر الجرجاني لكن هذه الدراسات لم تتناول هذا الموضوع الذي نحن في صدد تبيينه. ومن أهم هذه الدراسات يمكن الإشارة إلى ما يلي:

١. دلخوش جار الله حسيين دزهيي في كتاب *الثنائيات المتغايرة في كتاب دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني*، تناول أفكار الجرجاني وتحليلاته في ضوء نظرية التوليدية التحويلية. ٢. احسان عباس في كتاب *الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني*، يقوم بدراسة مقارنة في منهج الجرجاني ويحاول أن يبين علاقة منهج الجرجاني بالدراسات الغربية المعاصرة. ٣. أحمد مطلوب في كتاب *عبد القاهر الجرجانى بلاغته ونقده*، يكشف جهود عبد القاهر في أهم القضايا البلاغية والنقدية ٤. عبدالعزيز معوض في مقالة «أصول نظرية النحو التحويلي عند عبد القاهر الجرجاني»، يتناول أصول نظرية النحو التحويلي من خلال مؤلفات عبد القاهر الجرجاني ويبحث عن وجود جذور هذه الأصول في التراث النحوي. ٥. عاصم شحادة في مقالة «قضايا الأصول التراثية في

[١]- Roman Jakobson

Archive of SID

www.SID.ir

اللسانيات المعاصرة»، يتناول القضايا المعاصرة في اللسانيات ويحاول أن يثبت حقيقة مفادها أن التراث العربي القديم في مجال اللسانيات مليء بكثير من المفاهيم التي سبقوا فيها الغربيون بشكل واضح ومنهجي. ٦. محمد مندور في كتاب *النقد المنهجي عند العرب*، درس الجرجاني ونظريته وهو أول من لفت الانتباه إلى الأسس اللغوية لمنهج الجرجاني. ٧. عودة اللّه منيع القيسيّ في مقالة تحت عنوان «نظرية اللغة بين عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي»، يتناول نظرية اللغة عند الجرجاني وتشومسكي. ٨. يدرس روح الله هادي وليلا سيد قاسم في مقالة تحت عنوان «بررسی همانندیهای آراء جرجانی با ساختارگرایی و نقد نو»، وجوه التشابه بين آراء الجرجاني والبنيوية والنقد الحديث بصورة إجمالية.

١ـ ٢ـ أهمية البحث

تكمن أهمية هذا البحث في إبراز القيمة العلمية لآراء الجرجاني والتعرف على جهوده اللغوية. يكون لعبد القاهر الجرجاني فضل في توثيق الصلة بين الصياغة والمعنى، وفي الاعتداد في ذلك بالألفاظ من حيث دلالتها وموقعها، مجازية كانت أم حقيقية وبيان تأثيرها في تأليف الصورة الأدبية وهذا ما نراه عند البنيوية عندما تؤكد على أنّها «**نظامٍ من علاقات داخلية ثابتة، يُحدد السمات الجوهرية لأيّ كيان، ويشكّل كلا متكاملا لا يمكن اختزاله إلى مجرّد حاصل مجموع عناصره**» (المناصرة، ٢٠٠٦م، ص ٥٤٠). والحقيقة أن عبد القاهر الجرجاني اهتدى إلى البنيوية بمفهومها المعاصر قبل أن يهتدي إليها أي عالم ونظرية النظم عنده تشهد له بعبقرية لغوية منقطعة النظير، ولكن الجرجاني لم يدرس اللغة درسا صوريا شكليا. من ناحية أخرى آراء الجرجاني تقف ندّا قويا لنظريات اللغويين الغربيين في العصر الحديث بل آراء الجرجاني أكثر شمولية ودقة من النظريات الحديثة، لذلك يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

ما هي وجوه التشابه بين عبد القاهر وسوسير؟

ما هي أهم ميزات آراء الجرجاني من البنيويين؟

ما هي وجوه التشابه بين عبد القاهر وتشومسكي؟

من هنا ندرس بعض الآراء لعبد القاهر الجرجاني مقارنة مع الآراء اللسانية الأخرى خاصة آراء سوسير وتشومسكي. وفي البداية نعالج بعض الآراء لعبد القاهر الجرجاني مقارنة مع آراء سوسير.

٢ـ بين عبد القاهر وسوسير

إنّ عبد القاهر الجرجاني قد وضع أسس المنهج البنيوي في «نظرية النظم» التي وضع مبادئها وبنى أسسها بشكل دقيق وواضح وهو يفرق بين الدال والمدلول والمشار إليه وينظر إلى العلاقة بين الدال والمدلول على أنها اعتباطية ويكشف العلاقات القائمة بين مؤلفات التركيب (العبيدي، ١٣٦٨، ص ٦). يرى الجرجاني أن قيمة النص تكمن في قيمة علاقة عناصره وأجزاءه ببعضها البعض وترابطها، والخصائص التي تضفي على تلك العلاقات ككل. وسوسير يوكد على أن «**بناء اللغة أو نظامها لا يتمثل إلا في العلاقات بين الكلمات، وهي تمثل نظامًا متزامنًا حيث إن هذه العلاقات مترابطة**» (بياجه، ١٩٨٥م، ص ٦٤)، فمن هنا نشير إلى وجوه التشابه بين عبد القاهر ودي سوسير الذي يكون رائد المنهج البنيوي:

Archive of SID

www.SID.ir

٢ـ ١ـ ثنائية اللغة والكلام

فرق دي سوسير بين اللغة واللسان واللغة والكلام، وعدّ اللسان مختلفاً عن اللغة، لكنه يقع ضمن اللغة. دي سوسير ميّز بين اللغة[١]، وبين الكلام[٢] أو الحديث. وهذا التفريق ين اللغة والكلام ذكره ابن جني في تعريفه لحد اللغة «**بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم**» (ابن جني، ١٩٥٢م، ص ٣٣). ومما ذكره الجرجاني في هذا المجال هو أنه فرّق بين اللغة والكلام بأن جعل اللغة في الجانب النظري، وجعل الكلام في الجانب التطبيقي، وأطلق على الأول «علم اللغة»، وعلى الثاني «الموضع اللغوي»، ومن ذلك قوله: «**واعلم أنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند إلى اللغة ولكننا أوجبناها للعلم بمواضعها، وما ينبغي أن يصنع فيها، فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع والفاء للتعقيب بغير تراخ و«ثمّ» به يشرط التراخي و«أن» لكذا و«إذا» لكذا، ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت وألّفت رسالة تحسن التخير وأن يعرف لكل ذلك موضعه**» (جرجاني، ١٣٧٥، ص ٢٥٠). وفي هذا النص يركز الجرجاني على معرفة المتكلم للمعنى الذي اختاره، فهو يميز بين العلم باللغة وما يجب أن يقوم به المتكلم؛ حيث أشار سوسير إلى أن اللغة لها أهداف معينة عند الكلام، وهو يربط بين الصورة السمعية والتصور، ولا يستطيع الفرد أن يغير هذا التصور (انظر: عاصم شحادة، ٢٠١٠م، ص ٨٤ـ ٨٥).

٢ـ ٢ـ اللغة بناء ونظام ونسق من العلامات

إنّ اللغة بناء ونظام ونسق من العلامات، مترابطة الأجزاء، يعتمد كل جزء فيه على غيره بعلاقات تنظيم الدلالات، بحيث لو اختلت العلاقة بين هذه الأجزاء لاختلت الصورة والمضمون. والعلامات هي الألفاظ وهي ما يعرف بالدال أي الصورة وهذه الصورة الصوتية متحدة بتصور ما بالمدلول وهو المضمون والمحتوي. من خلال دراسة كتاب *الدلائل والأسرار* نجد أنّ كون اللغة نظاما أو بناء أو حتى نسقا قد طرح بشكل واضح على لسان الجرجاني في كل أجزاء كتابه *الدلائل*؛ لأن الجرجاني وضع لهذه النظرة في اللغة منهجا يريد من خلاله تحقيق فكرة أن النظم يتركز على معاني النحو و وجوهه وهذه بعض إيراداته في هذا المضمار:

«**أنت تؤدي في الجملة معنى من معاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٤٦).

صحة نظم الكلام والمزية في الكلام تعني: «**كيفية النظم وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها على بعض**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٣٦).

«**وإن الألفاظ ترتب على نسق المعاني في النفس لأن اللفظ تبع للمعنى في النظم وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٥٦ـ ٥٧).

و «**تتناسق الدلالات وتتلاقي المعاني على الوجه الذي يقتضيه عقل المتكلم**» (المصدر نفسه، ص ٥٠).

«**أنه لابد من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص، ليس هو الذي طلبته بالفكر ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق**» (المصدر نفسه، ص٥٢). و«**واعلمْ أنّ ممّا هو أصلٌ في أن يدقَّ النظرُ ويغمض المسلكُ في توخِّي المعاني التي عرفتَ، أنْ تتّحدَ أجزاءُ الكلام ويَدخُلَ بعضُها في بعض ويَشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول وأن يحتاج في الجملة إلى أن يضعها في النفس وضعا واحدا وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ها هنا في حال ما يضع بيساره هناك**» (المصدر نفسه، ص ٩٣).

---

١. La Langue
٢. La Parole

Archive of SID

www.SID.ir

فقد رسم عبد القاهر الجرجاني في كتابه *دلائل الاعجاز* طريقا جديدا للبحث اللغوي تجاوز به أواخر الكلام وعلامات الإعراب وبيّن أن للكلام نظما وأن رعاية هذا النظم وإتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام وأنه إذا عُدل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهما معناه ولا دالا على ما يراد منه ثم بيّن أن النظم يشمل ما في الكلام من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير وفصل ووصل وعدول عن اسم إلى فعل أو عن صيغة إلى أخرى (معوض، ٢٠٠٧م، ص ٢١٨). كما يقول:

اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه [...]، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو أن يجيء بـ«ما» في نفي الحال وبـ«لا» إذا أراد نفي الاستقبال وبـ«إن» فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون وبـ«إذا» فيما علم أنه كائن وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع «الواو» من موضع «الفاء» وموضع «الفاء» من موضع «ثم» وموضع «أو» من موضع «أم» وموضع «لكن» من موضع «بل» ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة [...]، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٨١ ـ ٨٢).

كون اللغة نظاما أو بنية أو نسقا هي فكرة انطلق بها المنهج البنيوي في عصرنا الحاضر وأول من أطلق هذا التعريف للغة دي سوسير الذي أراد من وراء ذلك أن ينفي عن اللغة فكرة التطورية وأن يصفها بأنها نظام يرتكز على قوانين توازن تؤثر على عناصره وترتهن في كل حقبة من التاريخ بالنظام اللغوي المتزامن ومن الطبيعي أن تؤلف مجموعة المعاني نظاما يرتكز على قاعدة من المقابلات وقد أطلق عليها لذلك لفظ النسق وهذه لا تعدو أن تكون بمعنى النظام الذي يعتمد على قوانين عامة تمتلكها اللغة أية لغة يلتزمها المتكلم عند الأداء (انظر: العبيدي، ١٣٦٨، ص ٦). من خلال دراسة كتاب *الدلائل والأسرار* نجد أنّ كون اللغة نظاما أو بناء أو حتى نسقا قد طرح بشكل واضح على لسان الجرجاني في كل أجزاء كتابه *دلائل الاعجاز*.

٢ـ ٣ـ العلاقة بين الكلمات

فالعلاقة التي يمكن أن يثبتها البحث بين عبد القاهر والبنيوية هي العلاقة القائمة بين المنهجين كما قلنا فكلاهما يدرس اللغة نظاما ونسقا؛ فالنظام يتمثل في البناء العام في التراكيب اللغوية الخاضعة لقواعد اللغة بالنظرة الشمولية لطبيعة اللغة في اصطلاحها لدى المتكلمين بها والنسق يتمثل في وجود السياق الذي تجري فيه هذه اللغة، فإذا نظر الباحث إلى اللغة بصفتها بنية وغيره فإنه من طبيعة هذه البنية في الفكر اللغوي الحديث أنها تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحويل يعرّض للواحد منها أن يحدث تحولا في باقي العناصر الأخرى وهو ما ذهب إليه عبد القاهر في مفهومه للتعليق أو نظام العلاقات الذي يربط الظواهر بعضها ببعض ويوضح تأثير أجزاء الجملة أو العبارة في بعضها (انظر: عباس، ١٩٩٩م، ص ١٦).

يفرق دي سوسير بين ما يسميه "القيمة اللغوية" للكلمة وبين ما يسميه "المقصود" من الكلمة ويكفي لدراسة القيمة اللغوية في رأيه أن ندرس عنصرين هما "الفكرة" ـ التي تدعو "صورة سمعية" أو "أصواتا" معينة ـ "والصورة السمعية" التي تدعو "الفكرة". وإن معنى كلمة من الكلمات عند دي سوسير هو ارتباط متبادل أو "علاقة متبادلة" بين الكلمة، أو "الاسم" وهي "الصورة السمعية" وبين الفكرة. إن الكلمة "علامة لغوية" ونحن عندما نفرق تفريقا أساسيا بين فكرتين فنحن نستعمل لذلك، "علامتين لغويتين"

Archive of SID

www.SID.ir

مختلفتين، فالتفكير، دون كلمات "عائم"، ويرى دي سوسير أن "العلامة اللغوية" لا تخلق وحدة بين اسم ومسمى، ولكن بين فكرة وصورة سمعية و"المقصود" يقابل "الرمز" أو العلامة"، والعلامة من ناحية أخرى تقابل سائر العلامات الموجودة في اللغة موضوع الدرس، وقيمة كل رمز أو علامة تتوقف على وجود سائر الرموز. وضرب دي سوسير لذلك مثلا بقطعة من ذات الخمسة فرنكات: هذه القطعة يتأتى استبدالها بكمية معينة من شيء كالخبز مثلا، ونستطيع كذلك أن نقارنها بقيمة مماثلة من نفس نظام العملة، كقطعة ذات فرانك واحد مثلا، أو قطعة من عملة أخرى كالدولار (السعران، د.ت، ص ٢٤٦).

أشار سوسير إلى العلاقة بين الكلمات في قوله: «**وفي الخطاب تقيم الكلمات ضمن تعاقدها فيما بينها علاقات مبنية على صفة اللغة الخطية تلك التي تستثنى إمكانية لفظ عنصرين في آن، وهذان العنصران إنما يقع الواحد منهما إلى جانب الآخر ضمن السلسلة الكلامية، ويمكن تسمية الأنساق التي يكون المدى لها تراكيب**» (انظر: دي سوسير، ١٩٨٧م، ص ١٥٦). ويؤكد الجرجاني في نظريته في النظم أنه لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، إذ عبّر عن فكرة نظام اللغة حيث ترتيب الكلام في النفس، ثم انتقاء كلمات عدة، وهذا الترتيب يخضع لقواعد اللغة وفق الدلالة العقلية للكلمات (انظر: الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٥٥)، ففكرة النظم عند الجرجاني هو تصور العلاقات النحوية كالعلاقة بين المسند والمسند إليه، ونظر الجرجاني للكلمة قبل دخولها التأليف وقبل أن تصير كلمة لها معنى الإخبار أو الإفراد أو التعجب، ورأى أنها في حالة الإفراد تفقد خصوصيتها، ورأى أن الألفاظ سمات لمعانيها، ولذا لا يتصور أن تسبق الألفاظ معانيها، وذلك ضرب من المحال (انظر: العبيدي، ١٣٦٨، ص ٧).

فالنظم عند عبد القاهر بنية معقدة تتسع لكثير من مظاهر النشاط اللغوي، كاالتعريف، والتنكير، والتقديم، والتأخير، والحذف، والوصل، والفصل، والإيجاز، والتعبير بالجملة الاسمية والفعلية والقصر والاختصاص وإلخ (سلوم، ١٩٨٣م، ص ١٢٨). ونظر الجرجاني إلى أن الفكر لا يتعلق بمعاني الألفاظ نفسها، وإنما بما بين المعاني من علاقات؛ وبذلك كانت نظرية النظم عملية توفيق بين الشكل المادي للصياغة والجانب العقلي للمعنى عبر الاستعانة بالنحو وتحويله إلى أحداث (عاصم شحادة، ٢٠١٠م، ص ٨٦). لاحظ سوسير نوعين من العلاقات اللغوية: علاقات رأسية تصريفية[١] وهي التي تقوم بين الكلمة المذكورة وكل ما يمت إليها بصلة لفظية أو معنوية من كلمات لم تذكر في النص وعلاقات أفقية تركيبية[٢] وهي التي تقوم بين الكلمة وسائر الكلمات في الجملة (حموده، ٢٠٠١م، ص ٢٤٨). بعد هذا السؤال الذي يخطر ببالنا هو: هل عرفت البلاغة العربية هاتين العلاقتين بمفهومها الحديث واستخدمت مصطلحين يمكن الرجوع اليها؟

نظرية النظم تمثل الجزء الأكبر من كتاب *دلائل الاعجاز* وقدرا ليس باليسير من *أسرار البلاغة*. لقد عكف الجرجاني على شرح نظريته وتطويرها وتطرق إلى كل ما يتعلق من أمورها، وفي مقدمتها نوع العلاقات التي تحكم الوحدات المكونة للبنية اللغوية والقارئ *لدلائل الإعجاز* سيدهشه عدد المواقع التي يتطرق فيها عبد القاهر إلى النظم وحيث يكون الحديث عن النظم يكون أيضا عن العلاقة الأفقية والعلاقة الرأسية وإن كان بالطبع لا يستخدم هذه المصطلحات الحديثة. فالمصطلح المتكرر في وصف العلاقة؛ العلاقة الأفقية وهي محور النظام الحقيقة هو «الجوار» أحيانا و «الضم» أحيانا أخرى. أما المحور الرأسي فالمصطلح الشائع بين البلاغيين العرب هو «الاختيار» وهو يؤدي المعنى الحديث بالكامل (المصدر نفسه، ص ٢٥٥).

١. Paradigmatiques
٢. syntagmatiques

Archive of SID

www.SID.ir

يقول عبد القاهر: «**ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٥٥). هل يحتاج الأمر إلى تفسير أو إيضاح؟ فالكلمات أو الألفاظ لا يرص بعضها إلى جوار بعض داخل البنية اللغوية ولكنها ترتبط بعضها ببعض ويجئ بعضها بسبب بعض؛ فالفعل لابد من أن يكون له فاعل والفاعل لابد من أن يكون له فعل والمبتدأ لابد من أن يكون له خبر وهكذا. وقد سبق أن قدم عبد القاهر نموذجا للنظم القادر على إحداث الدلالة في «قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل» وفوضي الدلالة حينما ينفرط عقد العلاقات الذي ينظم شطر البيت ويعاد تقديم الوحدات نفسها دون علاقات (حموده، ٢٠٠١م، ص ٢٥٦). والنموذج الثاني أكثر تفسيرا ومباشرة: «**فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمة مفردة وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة، وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٤٦).

والمحور الأفقي وهو شرط تحقق الدلالة يتمثل في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها. وحينما ينتقل عبد القاهر إلى المقارنة بين اللفظة تستحسن داخل سياق وتثقل على القارئ أو السامع أو توحشه في موضع آخر يجمع بين المحورين الأفقي والرأسي في جملة واضحة فالاستحسان والوحشة، بقدر ارتباطهما بالسياق التتابعي حسب أحكام النحو، يرتبطان أيضا بممارسة الاختيار السليم في الحالة الأولي والخاطئ في الثانية والاختيار كما قلنا هو أساس علاقة استبدال (انظر: حموده، ، ص ٢٥٦).

٢ـ ٤ـ اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول

تحدث عبد القاهر الجرجاني في كتابه الفذّ *دلائل الاعجاز* عن اعتباطية الدلالة. يرى عبد القاهر الجرجاني أن هذه الرموز اللغوية (لفظية وكتابية) لا صلة بينها وبين مدلولها بشكل مادي أو لازم، وإنما تقوم الصلة على أساس العرف اللغوي الاجتماعي، (الداية، ١٩٩٦م، ص ١٨). وقد أورد عبد القاهر الجرجاني عبارة دقيقة في هذا المجال عندما قال في *دلائل الاعجاز*: «**مما يجب إحكامه أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه فلو أن واضع اللغة كان قد قال ربض مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٤٩). ويرى في موضع آخر «**أن الدلالة تغدو متداولة في كل لغة بهذا الترابط الذهني القائم على العرف بين الدال والمدلول وعندما لا تفاضل بين دلالة لفظ (رجل) على الآدمي في اللغة العربية والكلمة الدالة عليه في الفارسية مثلا لأن كلا منهما تؤدي وظيفتها ولها شرعيتها اللغوية في مجتمعها اللغوي**» (المصدر نفسه، ص ٤٦).

تناول سوسير العلامة بين اللفظ والمعنى ورأى أنها علامة اعتباطية وأن الرمز اللغوي اتحاد تصور مع صورة (سمعية أو ذهنية أو نفسية)، ويميز بين الكلمة والشيء، ويقصد بالكلمة ما نسمعه أو ننطقه أو نكتبه أو نقرؤه، وهي المظهر التعبيري الحسي لما يتمثل بالرمز اللغوي، وأشار سوسير إلى أن التصور[١] وهو المدلول يتم التعبير عنه بصورة سمعية (الدال) ورمز لكل منهما بالمعادلة الآتية: مدلول[٢] ودال[٣] حيث الدور للأصوات بوضع الرمز اللغوي في مكان محدد في متوالية من الأصوات، وهذا الرمز ما هو إلا جمع نفساني بين دال أو مدلول، ويقصد بذلك أن الدال لا يوجد متحداً مع مدلول، وعند انعدام المزج بينهما لا تبقى إلا الصورة السمعية أو الذهنية أو النفسانية لمتوالية من الأصوات، فمثلاً نجد في اللغة العربية الأفعال: (كتب، جلس) تشير إلى دال أو تصور يمتزج بالمدلول، ويمكن تشبيه العلاقة بين التصور (الدال) والكلمة (المدلول) بالورقة التي لها وجهان، الوجه الأول هو الدال

١. concept
٢. signifié
٣. signifiant

Archive of SID

www.SID.ir

والوجه الثاني هو المدلول (الوجه والظهر للورقة). لذلك لا يمكن وجود وجه للورقة دون وجود ظهرها، ولذلك يستحيل وجود مدلول دون وجود دال. بمعنى آخر يرمز للرمز اللغوي تارة أخرى بالعلامة اللغوية، حيث جعل سوسير اللغة نظاما من العلامات، والبحث العلمي يؤمن بوجود أشياء محدودة ومعينة، وما يعبر به الناس عن اللغة يعد مستودعاً من العلامات اللغوية فهمها الناس على أنها مفردات اللغة أو الصلة بين اللفظ والشيء الطبيعي[١]، وهذه العلامة اللغوية لا تصل الشيء باللفظ ولكنها تصل التصور بالصورة السمعية (انظر: عاصم شحادة، ٢٠١٠م، ص ٨٨ ـ ٨٧).

إذن يرى سوسير أن العلاقة التي تجمع بين الدال والمدلول هي علاقة اعتباطية، بما أننا نعتبر العلاقة حصيلة اقتران الدال بالمدلول، فيمكننا استنتاج ثبوت وتحول الرمز عبر تبادلات معقدة، اعتباطية ولا اعتباطية تدخل في صلب عملية التعبير وقدرة المتكلم على صوغ أفق احتمالات انطلاقا من بنية لغوية محددة (انظر: قنديل، ٢٠١٠م، ص١٠). من جانب آخر أشار الجرجاني إلى موضوع العلامات والسمات، وأنه لا معنى للعلامة أو السمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه، وهو بذلك يشير إلى الدال والمدلول الذي ذكره سوسير. ولتوضيح ذلك، ذكر سوسير معنى لفظ الأخت[٢] بأنه ليس مرتبطاً بأي علامة قد نتخيلها داخل سلسلة أصوات لفظة الأخت: وهي أصوات اتخذت وسيلة كصوت دال، لأنه يمكن لهذه العلامة أن تصور بأية سلسلة أخرى من الأصوات تكون دالة (عاصم شحادة، ٢٠١٠م، ص ٨٨ ـ ٨٧).

ولذلك رأى كل من الجرجاني وسوسير أن الصوت لا معنى له إلا إذا حمل بعداً دلالياً، وأن الدلالة اللغوية ما هي إلا اصطلاح وتواضع اجتماعي يقتضيه الفكر، وأن الاختلاف بين اللغات يكون بسبب الاختلاف بين الدال والمدلول والعلاقة بينهما عند كل قوم (عاصم شحادة، ٢٠١٠م، ص ٨٨؛ وانظر: الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٤٦). ومن ناحية أخرى أشار ستيف أولمان إلى أن دراسة علم الدلالة تكون في العلاقة بين العلامة[٣] أي اللفظ أو الكلمة، والمدلول عليه، وهو ما دل على معنى الشيء المعنى (أولمان، ١٩٧٧م، ص ٧٦). وهذا المعنى يفسر لنا الوظيفة الدلالية والوظيفة الصوتية داخل التركيب، وهي تعبر عن العلاقة الجدلية بين اللغة والفكر.

أشرنا إلى فكرة نظرية النظم لدى الجرجاني، وهي فكرة تقوم على أساس الترابط والنظام في النظام اللغوي وتحدث بإرادة المتكلم، حيث يقول الجرجاني: «**فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة إلى لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص٤٤).

من ناحية أخرى ذهب سوسير إلى أن التركيب لا ينطبق على الكلمات فحسب، ولكنه ينطبق أيضاً على مجموع الكلمات والوحدات المعقدة من المقاييس والأصناف كافّة كأقسام الجملة والكلمات المركبة والمشتقة، ولا يكفي العلامة الرابطة بين أجزاء التركيب ولكن يؤخذ بعين الاعتبار العلاقة التي تربط الكل بأجزائه، أي أن الجمل لها دور تؤديه في نظام الكلام، وقد أكد ذلك سوسير عندما أشار إلى المركبات الترتيبية والعبارات النحوية (عاصم شحادة، ٢٠١٠م، ص ٩٠ ـ ٨٩).

---

[١]- onomatopoeia

[٢]- soeur

[٣]- signe

Archive of SID

www.SID.ir

إذن مصطلح التأليف لدى الجرجاني يتفق مع مفهوم التركيب لدى سوسير من حيث اختيار الكلمة في العقل ثم اختيار الكلام المرتبط في هذه الدلالة، وأن الكلمة بحد ذاتها لا تحمل دلالة إلا إذا ضمت إلى كلمة أخرى تكون معها البناء أو التركيب، وكذلك أشار سوسير إلى أن الكلمات المتفرقة لا معنى لها داخل التركيب إلا إذا اجتمعت في وحدات متداخلة، وأن الكلمة لا تفضل الكلمة الأخرى عند الجرجاني إلا في حالة وجود دلالة تربط المعنى بمدلوله، بينما سوسير يؤكد أنه لا معنى للعلامة إلا بعلاقتها بما ترتبط به من معنى كلّي، والصورة الكلامية عبر النص لا تتحدد إلا من الوظيفة التعبيرية للجملة كالإخبار والاستفهام، وأما دي سوسير فيرى أن الجمل لها دور في تحديد نظام الكلام أي نوع الجملة التي يقوم فيها المتكلم باختيار الضمير في الفرنسية (كم) للتمييز المراد في الموضع المعين (عباس، ١٩٩٩م، ص ٢٦ـ ٢٧).

كل ما أردنا إثباته بهذه النماذج العديدة أن كل معطيات علم اللغة كما طوره سوسير لم تكن فتحا جديدا وأن القول بأن اللغة نظام أو نسق علامات تربطها شبكة العلاقات من التتابعية والاستبدالية أمر عرفه العقل العربي.

٢ـ ٥ـ اهتمام الجرجاني بالمعنى خلافا للبنيويين

أما الجرجاني كما يتبين من خلال نظريته يخصص للمعنى مكانا كبيرا في أصولها وأركانها بل إنّ الدراسة اللغوية عنده تقوم على أساس المعنى قبل كل شيء وهو بهذا يخالف البنيويين الذين أقاموا منهجهم على درس اللغة درسا صوريا شكليا بالنظر إلي الصور اللفظية المختلفة داخل أية لغة ولم تحاول البنيوية الأمريكية الانفلات من النزعة الصورية في دراسة اللغات الهندوأمريكية ولكن الخط البياني اليوم أخذ يشير إلى اتجاهات جديدة في التيارات البنيوية تتبني علاقة اللغة (انظر: العبيدي، ٢٠١٠م، ص ٩)، فالمعنى هو الهدف المركزي الذي نصوب إليه سهام الدراسة من كل جانب فدراسة الصوت مع الشكل الصوتي ثم دراسة الصرف والنحو ودراسة الدلالة المعجمية والاستعمالية أو السياقية كل ذلك يسير في طريق المعنى لا غير؛ فكل فرع من النحو والصرف والدلالة والمعنى السياقي والصوت والوظيفة الصوتية في خدمة المعنى. إذ كل هذه الفروع تتجه إلى المعنى خلال الدراسات الخاصة.

وفي إطار هذا الاتجاه بدئ الآن في إرساء الدراسة اللغوية على المنطق والمعقول وجعلت نظرية النظم النحوي هدفها الأول دراسة المعنى لأن من المنطق أن يقوم نظم الكلام وترتيبه على معاني الكلم. يقول الجرجاني: «**النظم والترتيب في الكلام عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلام لا في ألفاظها**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٣٥٨). ويلمح من خلال كلامه أن الفضل دائما للمتكلم المبدع لأنه يقصد إلى المعنى دائما فينشئ ما يشاء من الكلام تبعا لما يريد من معان أما الذي يعيد كلام الآخرين ويحكيه فإنما هو مقلد ببغاوي وبين هذه النظرة وما يذهب إليه المنهج التوليدي من حركية التغيير اللانهائي في الإبداع اللغوي خيط من الوصل رفيع كما ترى (انظر: العبيدي، ٢٠١٠م، ص ١٠؛ وانظر: جرجاني، ١٣٧٥، ص ٣٥٨).

تظهر عناية الجرجاني بالمتكلم من خلال كثرة الألقاب التي خصه بها ومنها: المتكلم، المخبر، المولف، الشاعر، الناظم، المنشئ، القائل و واضع اللغة وتعود هذه العناية التي أولاها الجرجاني للمتكلم إلى أشعريته وذلك في إلحاحهم على أن الكلام بما هو إنجاز نفسي أو لابد له من متكلم وعلى هذا فقد جعل الجرجاني فعل المزية في القول من جهة المتكلم دون واضع اللغة لأن هذا الأخير تنحصر وظيفته في المواضعة فقط دون الإنجاز على عكس المتكلم الذي يتفرد بفعل الإنجاز بمقتضي الحال والمقام (ثقبايث، ٢٠١٢م، ص ٦٤)، وفي ذلك نجده يقول في فصل الفصاحة: «**إن الفصاحة فيما نحن فيه عبارة عن مزية هي بالمتكلم دون واضع اللغة**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص٤٠١).

Archive of SID

www.SID.ir

لا يقل دور المخاطب أهمية عن دور المتكلم حسب ما يراه الجرجاني، وكأنه يعمل على تفكيك المعنى وإعادة بناءه بالاستناد إلى عمليات ذهنية واستدلال قصد التأويل المناسب بحسب المقام، وذلك فيما يتيحه له عقله وذوقه بمعرفة مضمرات نظم المتكلم وهنا تظهر كفاءته في حسن التأويل فيقول الجرجاني في باب اللفظ والنظم مشيدا بأهمية الخلفية لدى المخاطب (السامع) (ثقبايث، ٢٠١٢م، ص ٦٧). «**واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومىء إليه من الحسن واللطف أصلا وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ويعرى منها أخرى وحتى إذا عجبته عجب وإذ نبهته لموضع المزية انتبه**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٢٩١). وهنا يكون المخاطب بحسب الجرجاني مخاطبا مشاركا في عملية التواصل فلا يستقبل فقط ما يصله من خطاب وإنما يشارك في بناء فهم مناسب للقول من خلال الآليات التي يسخرها في ذلك وهما الاستدلال والتأويل. ولابد هنا أن نعالج بعض الآراء لعبد القاهر الجرجاني مقارنة مع آراء تشومسكي:

٣ـ بين عبد القاهر وتشومسكي

لقد مرت نظرية «النحو التحويلي التوليدي»[١] بمرحلتين لدى تشومسكي وذلك من خلال كتابين من مجموعة مؤلفاته على النحو التالي:

المرحلة الأولي: من خلال كتابه «البنى النحوية»[٢] وفي هذا الكتاب يميز بين ثلاثة طرق للتحليل النحوي، وكل طريقة ترمز إلى نوع معين من النحو، وبناء عليه فإن تشومسكي يميز بين أنواع ثلاثة هي:

١ـ نحو الحالة المحدودة[٣]

٢ـ نحو بنية العبارة[٤]

٣ـ النحو التوليدي التحويلي[٥]

المرحلة الثانية: من خلال كتابه *مظاهر النظرية النحوية*[٦]

وهذه المرحلة تمثل تطور فكر تشومسكي، حيث قدّم نظرية أكثر تماسكا، اهتم فيها بعنصر الدلالة ليؤكد أهمية المعنى ودوره في التحليل ويؤكد أن هناك جانبين لا مناص من الاهتمام بهما معا لفهم اللغة الانسانية، أما الجانب الأول فهو الأداء اللغوي الفعلي، وهو الذي يمثل ما ينطقه الإنسان فعلا أي يمثل البنية السطحية للكلام الإنساني وأما الجانب الثاني فهو الكفاءة التحتية عند هذا المتكلم السامع المثالي وهي التي تمثل البنية العميقة للكلام وهذان المصطلحان الأداء[٧] والكفاءة[٨] يمثلان حجر الزاوية في النظرية اللغوية عند تشومسكي، لأن الأداء أو السطح يعكس الكفاءة، أي يعكس ما يجري في العمق من عمليات، ومعنى ذلك أن اللغة التي ننطقها فعلا إنما تكمن تحتها عمليات عقلية عميقة تختفي وراء الوعي، بل وراء الوعي الباطن أحيانا ودراسة «الأداء» أي

---

١. Transformational Generative Grammar
٢. Syntactic Structures
٣. Finial State grammar
٤. Phrase Structure grammar
٥. T.G. grammar
٦. Aspects of The Theory of syntax
٧. Performance
٨. Competence

Archive of SID

www.SID.ir

دراسة «بنية السطح» تقدم التفسير الصوتي للغة، أما دراسة الكفاءة أي بنية العمق فتقدم التفسير الدلالي لها (معوض، ٢٠٠٧م، ص ٢٢٠ـ ٢٢١).

وهذا ما أطلق عليه تشومسكي البنية السطحية[١] والبنية العميقة[٢] وهذا هو الأصل في «النحو التحويلي» الذي يهتم بالقوانين التي تحدد البنية التحتية وتربطها ببنية السطح (معوض، ٢٠٠٧م، ص ٢٢٢).

تُعرّف نظرية تشومسكي بأنّها تتألف من قواعد لها القدرة على الحذف والإضافة وتحريك العنصر من مكانه أو تعويضه بعنصر آخر والتحويلات تقوم بتحويل بنية العميقة إلى البنية السطحية أو تحويل خيط إلى خيط آخر وسميت هذه النظرية بـ«التوليدية» لقابلية العقل الإنساني على توليد مجموعة لا متناهية من التراكيب الأصولية مستعينا بالقواعد التحويلية التي تُحوّل التراكيب من حالة إلى أخرى (دزهبي، ٢٠٠٨م، ص ٣٥ ـ ٣٦). يهتم الجرجاني وتشومسكي بالنحو ويرى كلاهما أنّ الجملة هي الوحدة اللغوية الأساسية ويميز فيها بين البنية السطحية والبنية العميقة وتنظم القواعد التحويلية العلاقة بين البنية العميقة والبنية السطحية للجملة. هنا نعالج بعض الآراء لعبد القاهر الجرجاني مقارنة مع آراء تشومسكي:

٣ـ ١ـ النحو

يرى محمد عبدالمطلب «**أنّ عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي في اتجاههما إلى النحو كانت لهما منطلقات فكرية مسبقة فكلاهما كان نتاجا لمناخ فكري عقلي معقد مع الفرق بينهما حيث ارتبط الأول بمهمة دينية ذات أصول كلامية وارتبط الثاني بمنهج عقلي انساني محدد**» (انظر: عبدالمطلب، ١٩٩٥، ص ٢٨ -٢٩). فضلا عن ذاك إن لجوء الجرجاني للقول بالنظم للتوفيق بين اللفظ والكلام النفسي وعدّه الكلام النفسي موجها للفظ أمرا لا يكاد يكون مشابها لموقف تشومسكي بعدم تعويله على المنهج الوصفي (انظر: عبدالمطلب، ١٩٨٤م، ص ٢٨).

رفض تشومسكي المنهج الوصفي في النحو، ورأى أنه لا يدرك الجوانب الإنسانية في اللغة وذكر الواقع اللغوي عبر التعامل مع الآخرين، وربط اللغة بالجانب العقلي، وهذا التصور لتشومسكي أشار إليه عبد القاهر الجرجاني حينما تحدث عن نظرية النظم، وتشابه فيها مع فكرة التحويل والتوليد، فالجرجاني يرى النظم يتوقف على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون منه، وهذه الفروق أو الوجوه ذكرها كثيراً وليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا نجد لها ازدياد بعدها. وقد نص الجرجاني على معنى التحويل والتوليد عندما بيّن أن «**المعاني (النحوية) مثل سبيل الأصباغ (الألوان) التي تعمل منها الصور والنقوش، واختلاف النظرة للقارئ لهذه الألوان**». ونص الجرجاني على أهمية المعنى في تشكيل التركيب، كون التحليل اللغوي يهمل المعنى الذي يكون مثل وصف تركيب السفن دون أن نشير إلى البحر، حيث يقول: «**إن النظم ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعاني في نفسك ثم تحذو ترتيبها الألفاظ في نطقك**» (عاصم شحادة، ٢٠١٠م، ص ٨١؛ انظر: الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٤٥٤).

---

١. Surface Structure

٢. Deep Structur

Archive of SID

www.SID.ir

وهذا ذكره تشومسكي، قد وضعت نظرية النحو التحويلي مجموعة من القواعد وهي: قواعد الحذف[١]، وقواعد الإحلال والاستبدال[٢]، وقواعد التوسع أو التمديد[٣]، وقواعد الاختصار[٤]، وقواعد الزيادة أو الإضافة[٥]، وقواعد إعادة الترتيب[٦] (معوض، ٢٠٠٧م، ص ٢٢٢). عبد القاهر انطلق في قضية إعادة الترتيب من الربط بين النظم أو التأليف من جهة والدلالة من جهة أخرى وهذا يعدّ فهما للصياغة التي تقابل البناء السطحي والدلالة المقصودة التي تقابل البناء العميق ؛ إضافة إلى هذا فإن عبد القاهر يرى أن الألفاظ تترتب في الشكل بناء على ترتيب المعاني في الفكر ويرى أن إعادة الترتيب مرتبط بالمعنى أو الفهم لدى السامع ؛ وأن إعادة الترتيب لها تأثير كبير على تركيب الجملة وكذلك الوظيفة والتغير الدلالي، وهذا الأمر واضح من حديثه عن إعادة الترتيب في باب «ظن وأخواتها»، و«كان وأخواتها»، و«المبتدأ والخبر» و الخ. من ناحية أخرى حديث عبد القاهر عن الإقحام والزيادة والاتساع ما هو إلا طريقة من طرق توليد الجمل وأن هذا الإقحام يؤثر تأثيرا كبيرا على التركيب والدلالة وهذا ما فعله التحويليون التوليديون من بعده بمئات السنين (المصدر نفسه، ص ٢٥٨).

وقد واصل الجرجاني في مناقشة الطاقات التحويلية القائمة على الحذف أو الإضافة في هذه التراكيب، بقوله: «عبدالله قائم»، «إن عبدالله قائم»، «إن عبدالله لقائم»، ويعني التركيب الأول الإخبار عن القيام والثاني عن سؤال لسائل والثالث الجواب عن إنكار المنكر، ثم يعرض التحويل في التركيب: «زيدٌ ينطلقُ»، و«زيدٌ منطلِقٌ» ؛ فالأول عنده يعني الحدوث المتجدد وإخبار من لا يعلم بأن هناك انطلاقاً، أما التركيب الثاني فيعني ثبات الحدث ودوامه، والتأكيد من أن الانطلاق كان من زيد، وهذا يتشابه مع عناصر التحويل لدى تشومسكي.

سمي عبد القاهر الجرجاني بعض التغييرات الحاصلة في تركيب الجملة (وجوه كل باب وفروقه) حيث يقول:

وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: «زيد منطلق» و«زيد ينطلق» و«ينطلق زيد» و«منطلق زيد» و«زيد المنطلق» و«المنطلق زيد» و«زيد هو المنطلق» و«زيد هو منطلق» وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: «إن تخرج أخرج» و«إن خرجت خرجت» و«إن تخرج فأنا خارج» و«أنا خارج إن خرجت» و«أنا إن خرجت خارج» وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: «جاءني زيد مسرعا» و«جاءني يسرع» و«جاءني وهو مسرع» أو «هو يسرع» و«جاءني قد أسرع» و«جاءني وقد أسرع»، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٨١ ـ ٨٢٩).

فهذه التركيبات كلها يمكننا أن نرجعها إلى أصل واحد، يتمثل في الجملة النواة «زيد منطلق» والتحويلات التي حصلت فيها بعد ذلك لا تدعو إلى حملها على أصل نحوي آخر وهي:

١- Deletion
٢- Replacement
٣- Expasion
٤- Reduction
٥- Eddition
٦- Permutation

Archive of SID

www.SID.ir

ـ منطلق زيد

ـ زيد المنطلق

ـ زيد هو المنطلق

ـ زيد هو منطلق

ـ فجملة «منطلق زيد» تقدم فيها الخبر على المبتدأ: (خبر مقدم + مبتدأ مؤخر): (تحويل بالتقديم والتأخير).

ـ وجملة زيد المنطلق دخلت فيها «أل» التعريف على الخبر (مبتدأ + «أل» التعريف+ خبر): (تحويل بزيادة «ال» التعريف على الخبر).

ـ وجملة «المنطلق زيد» تقدم فيها الخبر على المبتدأ ودخلت «أل» التعريف على الخبر («ال» التعريف + خبر مقدم + مبتدأ مؤخر): (تحويل بزيادة «ال» التعريف على الخبر و تقديم الخبر على المبتدأ).

ـ وجملة «زيد هو المنطلق» أدخل فيها ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر ودخلت على الخبر «أل» التعريف (ابن شهاب، ٢٠٠١م، ص ٢٣٥): (مبتدأ + ضمير فصل + «ال» التعريف + خبر): (تحويل بزيادة ضمير الفصل وبزيادة «ال» على الخبر).

ـ وجملة «زيد هو منطلق» أدخل فيها ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر: (مبتدأ + ضمير فصل + خبر): (تحويل بزيادة ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر).

فكل هذه التحويلات لا تحمل على أصل نحوي متصور؛ لأن التحويل الذي حصل فيها لم يغير في الأصل النحوي شيئا، فالزيادات التي طرأت على الجملة إنما طرأت على الأصل النحوي نفسه، أما جملة «زيد ينطلق» فيمكن أن تحمل على التأويل؛ لأن التحويل الذي حصل فيها ـ وهو تحويل اسم الفاعل (منطلق) إلى الفعل المضارع (ينطلق) ـ يستدعي الرجوع إلى الأصل النحوي المتمثل في أن الأصل في الخبر أن يكون مفردا لا جملة وعليه يؤول الفعل المضارع (ينطلق) باسم الفاعل (منطلق)؛ لأن جملة «زيد منطلق» فرع محول عن أصل هو (زيد منطلق).

أما التحويل من الجملة الاسمية (زيد منطلق) وهي الجملة النواة إلى الجملة الفعلية (ينطلق زيد) والتي تمثل البنية السطحية فلا يستدعي حمل البنية السطحية على أصل نحوي مفترض؛ لأنها هي تمثل أصلا نحويا محددا بوصفها جملة فعلية، إذ لا يرد أصل نحوي معين على أصل نحوي آخر ولكن يمكن أن نوجه هذا التحويل على أنه تحويل عن الجملة النواة (زيد منطلق) من خلال تغيرين هما:

أولا: تحويل الجملة الاسمية إلى جملة فعلية؛

ثانيا: تقديم المسند وهو فعل الانطلاق على المسند اليه وهو «زيد» (ابن شهاب، ، ٢٠٠١م، ص ٢٣٦).

يضرب الجرجاني أمثلة وشواهد كثيرة كما في مثل:

ما ضربت زيدا ـــــــــ ما أنا ضربت زيدا

ويفسر هذا التغيير الموضعي التحويلي بقوله «**إذا قلت ما ضربت زيدا كنت نفيت عنك ضربه ولم يجب أن يكون قد ضرب بل يجوز أن يكون قد ضربه غيرك وأن لا يكون قد ضرب أصلا وإذا قلت ما أنا ضربت زيدا لم تقله إلا وزيد مضروب وكان القصد أن تنفي أن تكون أنت الضارب ومن أجل ذلك صلح في الوجه الأول أن يكون المنفي عاما**» (جرجاني، ١٣٧٥، ص ١٢٤).

Archive of SID

www.SID.ir

ويدلل بهذا أنّ الجرجاني قد أثبت «**أن العربية تلجأ إلى طرق بنيوية في تأكيد الكلمة وتخصيص دورها الدلالي بتغيير التركيب الكلي للتعبير لتوافر مدي أبعد من الحرية في التعامل مع المكونات اللغوية على صعيد البنية فيها**» (أبوديب، كمال، ١٩٨٧م، ص ٣٠٩).

وقد أصاب الجرجاني فيما ذهب إليه لأنّه لا يعقل أن تطرأ تغييرات على البنية السطحية دون أن تقترن بتغييرات دلالية ويقرّ الدرس اللغوي الحديث ذلك بـ«**أنّه لا يعقل أن تطرأ تغييرات على البنية السطحية دون أن تقترن بتغييرات دلالية وأن دور التحويلات إنّما يتمثل في الربط بين التمثيل الدلالي والبنى السطحية**» (الفاسي الفهري، ١٩٨٢م، ج ١، ص٧١).

٣ـ ٢ـ التمييز بين البنية السطحية والبنية العميقة

يرى تشومسكي أنّ الجملة هي الوحدة اللغوية الأساسية ويميز فيها بين البنية السطحية والبنية العميقة وينظم القواعد التحويلية والعلاقة بين البنية العميقة والبنية السطحية للجملة. أما الجرجاني يرى أن النص هو الوحدة اللغوية الأساسية ويميز بين البنية السطحية والبنية العميقة في الجملة ويؤكد أن اختلاف النظم يؤدي إلى تغاير في المعنى.

أما فيما يتعلق بالبنية السطحية[١] والبنية العميقة[٢] في التركيب، فقد تناول الجرجاني مثالاً يعين على إيضاح هذا المفهوم الذي ذهب إليه تشومسكي، فمثلاً يقول الجرجاني: «**إذا قلت ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له، فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم لتفيد أنفس معانيها، وإنما جئت لتفيد وجوه التعليق التي بين الفعل الذي هو ضرب وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق**» (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ٤٠٥). ويبرز في كلام الجرجاني مفهوم البنية السطحية والبنية العميقة التي أشار إليها تشومسكي، ويقول الجرجاني: «**فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معانٍ**» (المصدر نفسه، ص ٤١٣)، فالعلاقة بين تشومسكي والجرجاني تلتقي عند مراعاة النمط الخاص للعلاقات داخل النظام اللغوي، والمحافظة على نظم الكلام بتحويل القاعدة النحوية التي تحافظ على قانون النحو من أن المبتدأ هو ما يبتدأ به الكلام، وعلى أساس هذا لامس الجرجاني ما قال به تشومسكي من أن الجمل هي الوحدة اللغوية الأساسية فيها بنية عميقة وبنية سطحية، وما يحدث للجملة من تقديم وتأخير أي تحويل (عاصم شحادة، ٢٠١٠م، ص٨٤).

كما نرى أن عبد القاهر يتناول الجانب التطبيقي لظاهرة الحذف وجاء تناوله للظاهرة قائما على أساس إدراكه لربط الحذف بالدلالة وأثر المحذوف على السطح في الدلالة والمعنى في البناء العميق، إضافة إلى هذا فإن عبد القاهر يربط بين المبني والمعنى والتعدد الدلالي والتأويل وظلال المعاني التي تخلقها التراكيب المؤلفة بطريقة مخصوصة حسب قصد المتكلم وملائمة التركيب اللغوي للحالة النفسية والدوافع الموجودة خلفه لأنّ الألفاظ خدم للمعاني وهذه الفكرة هي التي تحدث عنها تشومسكي تحت عنوان الدوافع النفسية للنحو التحويلي (معوض، ٢٠٠٧م، ص ٢٥٧).

في هذا السياق استشهد الجرجاني بأمثلة كثيرة في باب التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والفصل والوصل، والقصر موضحا فكرته، فعلى سبيل المثال في باب التقديم والتأخير يؤكد الجرجاني أنّ البنية التحتية مختلفة في نحو: «الحبيب أنت» و«أنت الحبيب». في هذا الصدد يقول الجرجاني:

> **مما يدل دلالة واضحة على اختلاف المعنى إذا جئت بمعرفتين ثم جعلت هذا مبتدأ وذاك خبرا تارة وتارة بالعكس قولهم «الحبيب أنت» و«أنت الحبيب» وذاك أن معنى «الحبيب أنت» أنه لا فصل بينك وبين من تحبه إذا صدقت المحبة وأن مثل المتحابين مثل نفس**

١- Surface Structur

٢- Deeb Structur

Archive of SID

www.SID.ir

يقتسمها شخصان كما جاء عن بعض الحكماء أنه قال «الحبيب أنت» إلا أنه غيرك فهذا كما ترى فرق لطيف ونكتة شريفة ولو حاولت أن تفيدها بقولك «أنت الحبيب» حاولت ما لا يصح لأن الذي يعقل من قولك «أنت الحبيب» هو ما عناه المتنبي في قوله:

أنـــت الحبيـــب ولكـــني أعـــوذ بـــه مـــن أن أكـــون محبـــا غـــير محبـــوب

ولا يخفى بعد ما بين الغرضين فالمعنى في قولك «أنت الحبيب» أنك أنت الذي أختصه بالمحبة من بين الناس (الجرجاني، ١٣٧٥، ص ١٩٠).

ذاك أن المعنى في عبارة «الحبيب أنت» هو أنه لا فصل بينك وبين من تحبه إذا صدقت المحبة وأن مثل المتحابين مثل نفس يقتسمها شخصان، فالمعنى في عبارة «أنت الحبيب» أنك أنت الذي أختصه بالمحبة من بين الناس، بعبارة أخرى إنّ تركيب «أنت الحبيب» تركيب توليدي قياسا إلى التركيب الآخر الذي هو تركيب تحويلي «الحبيب أنت».

٤ـ الخاتمة

بعد هذا العرض يمكن القول أن عبد القاهر الجرجاني اهتدى إلى البنيوية بمفهومها المعاصر قبل أن يهتدي إليها أي عالم ولكن الجرجاني لم يدرس اللغة درسا صوريا شكليا واهتم بالنص، والمؤلف والقارئ في الوقت نفسه. تقف آراء الجرجاني نداً قويًا لنظريات اللغويين الغربيين في العصر الحديث بل آراءه أكثر شمولية ودقة من النظريات الحديثة. إن الجرجاني كما يتبين من خلال نظريته يخصص للمعنى مكانا كبيرا في أصولها وأركانها بل إنّ الدراسة اللغوية عنده تقوم على أساس المعنى قبل كل شيء وهو بهذا يخالف البنيويين الذين أقاموا منهجهم على درس اللغة درسا صوريا شكليا.

يرى الجرجاني أن قيمة النص تكمن في قيمة علاقة عناصره وأجزاءه ببعضها البعض وترابطها، والخصائص التي تضفي على تلك العلاقات ككل. يوكد سوسير على أن بناء اللغة أو نظامها لا يتمثل إلا في العلاقات بين الكلمات، وهي تمثل نظامًا متزامنًا حيث أن هذه العلاقات مترابطة. يؤكد كل من سوسير والجرجاني على أن العلاقة التي تجمع بين الدال والمدلول هي علاقة اعتباطية وأنّ المفردة تكسب قيمتها الدلالية والجمالية داخل السياق. يرى تشومسكي أنّ الجملة هي الوحدة اللغوية الأساسية أما الجرجاني فيرى أن النص هو الوحدة اللغوية الأساسية. تشومسكي والجرجاني كلاهما يميزان بين البنية السطحية والبنية العميقة في الجملة وينظمان القواعد التحويلية والعلاقة بين البنية العميقة والبنية السطحية للجملة. رفض تشومسكي المنهج الوصفي في النحو، ورأى أنه لا يدرك الجوانب الإنسانية في اللغة وذكر الواقع اللغوي عبر التعامل مع الآخرين، وربط اللغة بالجانب العقلي، وهذا التصور لتشومسكي أشار إليه عبد القاهر الجرجاني حينما تحدث عن نظرية النظم، وتشابه فيها مع فكرة التحويل والتوليد. وقد نص الجرجاني على معنى التحويل والتوليد عندما بيّن أن «**المعاني (النحوية) مثل سبيل الأصباغ (الألوان) التي تعمل منها الصور والنقوش، واختلاف النظرة للقارئ لهذه الألوان**».

❁❁❁

المصادر والمراجع

أ) الكتب

١. ابن جني، أبو الفتح بن عثمان. (١٩٥٢م ـ ١٩٥٦م). ***الخصائص***. (تحقيق محمد علي النجار). (ج١). القاهرة: دار الكتب المصرية.

٢. ابوديب، كمال. (١٩٨٧م). ***في البنية الايقاعية للشعر العربي العراق***. (ط٣). بغداد: طباعة و نشر دارالشؤون الثقافية العامة.

٣. أولمان، ستيف. (١٩٧٧م). ***دور الكلمة في اللغة***، ترجمة كمال بشر. (ط٢). القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.

Archive of SID

www.SID.ir

٤. جارالله حسين دزهيي، دلخوش. (٢٠٠٨م). ***الثنائيات المتغايرة في كتاب دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني***. الأردن: دار دجله.

٥. الجرجاني، عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد. (١٣٧٥). ***دلائل الإعجاز***. (تعليق أبوفهر محمود محمد شاكر). القاهره: مكتبة الخانجي.

٦. حسان، تمام. (١٩٩٤م). ***اللغة العربية معناها ومبناها***. المغرب: الدار البيضاء.

٧. حموده، عبدالعزيز. (٢٠٠١م). ***المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية***، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

٨. بياجه، جان. (١٩٨٥م). ***البنيوية***. (ترجمة عارف منيمنه وبشير أوبري). (ط٤). بيروت: منشورات عويدات.

٩. الداية، فايز. (١٩٩٦م). ***علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق؛ دراسة تاريخية، تأصيلية، نقدية***. (ط٢). دمشق: دارالفكر.

١٠. دي سوسير، فرديناند. (١٩٨٧م). ***محاضرات في علم اللغة العام***. (ترجمة عبد القاهر قنيني). المغرب: أفريقيا الشرق.

١١. السعران، محمود. (د.ت). ***علم اللغة مقدمة للقارئ العربي***. (ج١). د.م: مكتبة مدرسة الفقاهة.

١٢. سلوم، تامر. (١٩٨٣م). ***نظرية اللغة و الجمال في النقد العربي***. سورية: دار الحوار.

١٣. عباس، محمد، ***الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني***، دمشق: دارالفكر المعاصرة، ط١، ١٩٩٩.

١٤. عبدالمطلب، محمد. (١٩٩٥م). ***قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني***. القاهرة: مطابع المكتب المصري الحديث.

١٥. الفاسي الفهري، عبد القاهر. (١٩٨٢م). ***اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية و دلالية***. بغداد: دار الشوون الثقافية العامة.

ب) المقالات

١٦. عاصم شحادة، علي. (٢٠١٠م). «قضايا الأصول التراثية في اللسانيات المعاصرة». ***مجلة مجمع اللغة العربية الأردني***. الجامعة الإسلامية بماليزيا. العدد ٧٩ : ص ٧٧ ـ ١٠٧.

١٧. عبدالمطلب، محمد. (١٩٨٤م). «النحو بين عبد القاهر وتشومسكي». ***مجلة فصول أدبية***. العدد ٣. المجلد ٤ : ص ٢٨.

١٨. العبيدي، رشيد عبدالرحمن. (١٣٦٨). «البحوث والدراسات: في جدل التراث والمعاصرة الالسنية بين عبد القاهر والمحدثين». ***مجلة المورد***. كلية التربية جامعة بغداد. العدد ٧١: ص ٥ ـ ٢٤.

١٩. محمد زين بن شهاب، عبدالله. (٢٠١١م). «التأويل النحوي في ضوء نظرية النظم». ***مجلة كليات التربية***. جامعة عدن. العدد ١٢.

٢٠. معوض، عاطف عبدالعزيز. (٢٠٠٧م). «أصول نظرية النحوالتحويلي عند عبد القاهر الجرجاني». ***مجلة علوم اللغة***. المجلد العاشر. العدد ٤ : ص ٢٠٧ ـ ٢٨٢.

٢١. المناصرة، عزالدين. (٢٠٠٦م). «علم الشعريات (قراءة مونتاجية في أدبية الأدب)». عمان: دار مجدلاوي.

ج) الرسائل الجامعية

٢٢. قنديل، وردة عبدالعظيم عطا الله. (٢٠١٠م). ***البنيوية وما بعدها بين التأصيل الغربي والتحصيل العربي***. رسالة الماجستير بالأدب والنقد بكلية الآداب قسم اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بغزة.

٢٣. حامده، ثقبايث. (٢٠١٢م). ***قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز***. رسالة الماجيستر. الجزائر. جامعة مولود معمري تيزي وزو. كلية الآداب واللغات.

د) المواقع الإلكترونية

البنيوية من منظور الجرجانى: موقع منتديات الجلفة لكل الجزائريين و العرب:

http://www.djelfa.info/vb/archive/index.php/t-٥٥٨٥٤.html

Archive of SID

www.SID.ir